زواجُه منْ خديجةَ

رأت السيدةُ خديجةُ بنتُ خويلد في مالها من البركة ما لم ترَ قبلَ أن يتاجرَ فيه محمدٌ ﷺ، وسَمعَتْ من غلامها ميسرةَ حديثًا طويلاً عن فضائل وأخلاق الصادق الأمين.

ولقدْ كانَ سادةُ قريش وكبراؤها يحرصونَ علَى الزواج منهَا فكانتْ تتأبَّى عليهمْ.

وفكَّرَت السيدةُ خديجةُ في أمر محمد ﷺ ووجدتْ فيه الرجلَ المناسبَ الذي تأتمنُه علَى نفسها ومالها بما عرَفتْ من كريم أخلاقه ومنطقه الصادق.

ورغبت السيدةُ خديجةُ في الزواج من الصادق الأمين وأسرَّتْ برغبتها هذه إلى صديقتها نفيسةَ، فأسرعتْ نفيسةُ إلى النبيِّ ﷺ تفاتحُهُ في الأمر، وقالتْ لهُ:

- هلاّ سكنتَ إلى زوجٍ تحنُو عليكَ، وتؤنِسُكَ، وتزيلُ وحشتَك؟!

فأطرقَ النبيُّ ﷺ قليلاً، ثمَّ قالَ:

- ما بيدي ما أتزوجُ به؟!

فقالتْ:

- ولكنْ إذا دعيتَ إلى الجَمال والمال والشرف ألا تجيبُ؟

وفهم الرسولُ ﷺ مقصدَها، فرضيَ بذلكَ، وكلَّم أعمامَه فذهبُوا إلى عمِّها عمرو بن أسد بن عبد العُزَّى بن قُصَيٍّ يخطبونَها إليه. . وهناكَ تمّتْ مراسمُ الزواج؛ إذ تكلَّم عمه أبو طالب، وقالَ: «أمَّا بعدُ، فإن محمدًا ممَّنْ لا يوازنُ به فتًى من قريش، إلا رَجَحَ به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال قلّ فإنما المالُ ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مسترجَعةٌ، ولهُ في خديجةَ بنت خويلد رغبةٌ، ولهَا فيه مثلُ ذلكَ».

فأثنَى عليه عمُّها عمرُو بنُ أسدٍ، وزوَّجَها له علَى صَدَاقٍ قدرُه عشرونَ بكرةً، وتم الزواجُ السعيدُ.

* * *

وكان سنُّ النبيِّ عندمَا تزوَّجَ خديجةَ خمسةً وعشرينَ عامًا . .

ومضتْ حياةُ النبيِّ ﷺ معَ السيدة خديجةَ في سعادةٍ وحبٍّ؛ فقدْ عوَّضَتْه - رضيَ اللهُ عنها - عن حنان الأمِّ.

فقدْ كانتْ زوجةً حَنونةً عطوفةً محبَّةً لزوجها، شاركَتْه أحاسيسَه ومشاعرَه، وسعِدَتْ بأخلاقه النبيلة.

ودائمًا تثني عليه قائلةً:

- إنَّه يحملُ الكَلَّ، ويكسبُ المعدومَ، ويقْري الضيفَ، ويُعينُ على نوائبِ الحقِّ.

* * *

ورُزِقَ النبيُّ ﷺ جميعَ أولاده من السيدة خديجةَ سوَى إبراهيمَ.

ولدَتْ له أولاً القاسمَ - وبه كانَ يكنَّى - ثم زينبَ ورقيةَ، وأمَّ كلثُوم وفاطمةَ وعبدَ الله.

وماتَ وَلَداهُ القاسمُ وعبدُ الله في صغَرهما، أما البناتُ فكلُّهنَّ أدركنَ الإسلامَ فأسلمنَ وهاجرنَ، إلا أنهنَّ أدركتهنَّ الوفاةُ في حياته

ﷺ سوى فاطمةَ - رضيَ اللهُ عنها - فقدْ تأخرتْ بعدَهُ ستةَ أشهرٍ، ثم لحقَتْ به.

وهكذَا كانتْ مرحلةُ شباب النبيِّ ﷺ كلُّها طهرٌ ونبلٌ ونشأةٌ مثاليةٌ عاليةٌ. والمتصفِّحُ لمرحلة الشباب هذه يجدُ فيهَا القدوةَ الطيبةَ، والأسوةَ الحسنةَ التي يجبُ على الشابِّ المسلم أن يقتديَ بها في حياته منتهجًا فيها نهجَ الإسلام ورسول الله ﷺ. ومنْ أجل ذلكَ نحبُّ أن نضعَ علَى الطريق بعضَ الدروسِ والعبرِ التي يحتاجُ إليها شبابُ الإسلامِ.

أولاً: الصعوباتُ تلدُ الرجالات.. نعمْ فكلَّما كانتْ نشأةُ الفرد مليئةً بالعقبات فإنَّ بقيةَ حياته ستكونُ حافلةً بالبطولات التي تمسحُ عنه غُبارَ النشأة، وهذَا المثلُ تكرَّرَ عبرَ التاريخ، فها هوَ موسَى - عليه السلامُ - الذي نشأَ في بيئة محترفة للعذاب، ينزلونَهُ بالضعفاء منْ بني إسرائيلَ، قتل للأبناء، واستحياء للنساء، فربَّاه اللهُ على عينه وفَتَنَه فُتونًا، حتى يكونَ حقيقًا بحمل الرسالة الشاقة أمامَ العُتاة الطغاة من الفراعنة. ومنْ قبله كانَ يوسفُ - عليه السلامُ - الذي ألقاهُ إخوتُهُ في البئر، وتحوَّلَ من الحرية إلَى العبودية، وفُتِنَ بالتي هوَ في بيتها فلمْ

يفتَتَنْ، وزُجَّ به في السجن فلم يجزَعْ، حتَّى جعلَ اللهُ لهُ بعدَ الضِّيق فرجًا، وبعدَ العُسر يسراً، ومكَّن له في الأرض، يتبوَّأ منهَا حيثُ يشاءُ، ومسَّكهُ خزائنَ مصرَ، وبعدَ ذلكَ منَّ علَى إخوته الذينَ ألقَوه في البئر، وجاءَ بأبويه من البَدْو، وأسكنَهم مصرَ معزَّزينَ مكرَّمينَ.

وها هو محمدٌ ﷺ يموتُ أبوه وهوَ في بطن أمه، وترضَى به مُرضعَتُه حليمةُ السعديةُ على مضَض، حتى ظهرتْ بركاتُ الله في أتانها، وغنمها ولبنها، وماتتْ أمُّه وهو في السادسة من عمره وتوالتْ عليه الأحزانُ والفجائعُ، وهوَ محتسبٌ صابرٌ حتَّى مَنَّ اللهُ عليه بامرأة تخطبُه، وهيَ التي كانتْ ترفضُ الزواجَ من علية القوم، ولكنها عرَفتْ أنَّ الرجالَ لا يقدرونَ بالأموال، ولكنْ يقدرونَ بالأعمال.

وكثيرٌ من رجال الإسلام نشَؤوا نشأةً صعبةً محزنةً، وأحاطتْ بهم الخُطوبُ من كلِّ جانب.. فالحسنُ البصْريُّ كانَ مملوكًا، وصارَ أكرمَ على الله وعندَ الناس منَ الملوك. والإمامُ مالكٌ نشَأ يتيمًا، والشافعيُّ كذلكَ، انتقلتْ به أمُّه من غزّةَ - بفلسطينَ - إلى مكةَ، يجوعُ يومًا ويشبعُ يومًا، حتى صارَ إماماً يشارُ له بالبَنان. وهذا هوَ الإمامُ أحمدُ

والإمامُ العزُّ بنُ عبدِ السلام وابنُ تيميَّةَ، وصلاحُ الدين الأيوبيُّ، كلُّ هؤلاء لمْ يكن يتخيَّلُ التاريخُ أن يكونُوا منْ أهل هذَا المقام السامق، والمحلِّ الأجلِّ، والصفحات الناصعة في التاريخ الإسلاميِّ. كانتْ طفولاتُهم جميعًا في مخاطرَ كادتْ تودي بحياتهمْ، وأنقذتْهُم يدُ الله المبدعَةُ المُنْجيَةُ واصطنَعَهُم لنفسِه، وحمَى بهمْ دينَه وأهله.

* * *

Obeikandl.com